

الأرضُ والسماء

لا مفر من هذا التعبير «الأرض والسماء» حتى بعد ان افرغ من محتواه الديني .
وليس أقرب إلى الحقيقة من هذا التضاد بين عالمين : ماهو وقتي عارض فان ، وما
هو جوهرى دائم .للعالم ، للفنان ، أرضه وسماؤه . الأرض هي مطالب الجسم
ولذات الحياة اليومية ومشاغلها . والسماء هي مطالب العقل والروح ، ولذات الحياة
العليا وواجباتها . هذه السماء لا تبلغ الا بتضحية الأرض ، وخسارة الأرض على
الأرض معناها عذاب الجحيم . وفي هذا الجحيم ومن خلال لهيبه ترمق العين
وتستشف أفياء الخلود .

لو كان الافراط في اللذة وطلب الرفاهية وحب متع الحياة هو الذي يبعد السماء
عن الانسان لهان الامر ، لان المفرطين قليلون ، وشروط الافراط غير سهلة ولكن
البلية ان أكبر خطر يعرض سماء الانسان الى الضياع ، وأكبر حائل يقف بينه وبينها
هو مطالب حياته المعتدلة وسعادته المشروعة ، وكل ما تنزع اليه الطبيعة السليمة
ويأمر به العقل وتوافق عليه الاخلاق النصيب المشروع من الراحة والرفاهية والحرية
والحب والصدقة . ذلك لان السماء غير طبيعية ولا معقولة ، ولان لها أخلاقها
الخاصة .

للحياة قوانين ، بينها وبين القوانين الطبيعية هذا الفرق الجوهرى قوانين
الطبيعة تستكشف مرة واحدة ، وقوانين الحياة يجب على كل فرد أن يستكشفها في
حياته من جديد .

من هذه القوانين : انه لا ربح بلا خسارة ، ولا ربح الأعلى قدر الخسارة ، الى حد ان
الذي يقبل بأن يخسر كل شيء يستطيع وحده ان يأمل بالربح الاكبر .

أبعد الناس عن فهم الحياة ، هم الذين يعتقدون بإمكان التوفيق بين النقيضين
باستطاعة المرء ان يربح من غير خسارة ، ان يصعد الى السماء وقدماه لاصقتان
بالأرض . اذا صح ذلك فلان هذه السماء التي يقصدونها حقيرة الى حد ان المرء
يتناولها وهو قاعد ، كاذبة زائفة يربحها بخدع القمار .

وهناك وهمان يجب ان يبددا، الاول ان نحسب السماء تبلغ بلا مشقة، والثاني حسب ان المشقة وحدها موصلة الى السماء، او انها هي السماء. الوهم الاول اشاعه غرور بعض الفنانين او ذهولهم، فقد كتموا كل العذاب الذي قاسوه حتى امتلكوا قيادتهم، او ان عذوبة الفن لطفت من مرارة العمل الفني، وجمال القمة انساهم وعورة الطريق الذي سلكوه لبلوغها. صحيح انه لا يبلغ السماء الا من وهب جناحان وقدرت له مواهب أساسية، ولكن ما لا يقل عن ذلك صحة ان هذه المواهب لا تظهر الا اذا أصغى المرء الى ندائها، وصم أذنيه عن جلبة العالم الخارجي ومغرياته وسهولاته، ووزن المسؤولية التي تفرضها وقبل بها، وجرّد لها من قوة الإرادة ما تقتضي. الجناحان يطيران بك اذا رميت كثيرا من أحمالك حتى يستطيعا حملك، واذا رضيت بكثير من الضغط او المقاومة اللازمة لحملهما، المصير العظيم لا يعني انك ستكون عظيما الا اذا تحملت عبء العظمة.

والوهم الثاني هو ان نحسب مجرد تحمل المشقة الكبيرة دليلا على المصير الكبير، وفي هذا ما يضل عن الغاية ويغري باتخاذ الوسيلة بدلا منها. فبعد ان كانت وعورة الطريق واسطة لبلوغ القمة تصبح هي الشغل الشاغل، ويستحيل العمل رياضة وبهلوانية، كل النفوس التي تزهد للزهد، وتخاطر حبا بالخطر وتنزوي ارتياحا الى الانزواء، هي نفوس بهلوانية لا مثالية. كذلك الذين يحاكمون هذه المحاكمة: اذا كانت السماء وعرة الطريق، فكل طريق وعرة توصل اليها. تلك هي العقول القاصرة.

ان المشقة محتومة ولكنها ليست مرغوبة، ومن الواجب التغلب عليها حتى تخف وتختفي. عندئذ يصبح الذي يضحى بالارض دون ان يشعر بألم التضحية عائشا في السماء، او ان الارض لديه تستحيل سماء.

عام ١٩٤٤